الانشاء» لم يكمله ، وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار ، سريع الغضب سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره ، أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل الى الطول ، له هزة وتبختر فى مشيته لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه . ولما انتقل الى مدارس الأقاليم صار يحضر الى القاهرة فى فترات فينزل عندنا ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه فى ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجهما فى حياته ، رحمه الله .

الشيخ أحمد وهبى

كان طالب علم فقير ثم تزوج باحدى الموسرات فحسنت حاله وفتح له حانوت طرابيش بالغورية جعلها مجتمع الأدباء والشعراء ولم ينجح فى التجارة فتركها وأخذه الشيخ مصطفى سلامه النجارى معه فى الوقائع المصرية وجعل محرّراً ثانياً بها ثم فصل وتقلبت به الأحوال فاتصل بأسرة المويلحى ثم بالشيخ على أبى النصر شاعر الخديو اسماعيل باشا فسعى له فى الاستخدام بنظارة المعارف فلم يوفّق .

وكان طلبه العلم على الشيخ منصور كسّاب وغيره من شيوخ الوقت وتعلق بالأدب ونظم الشعر الجيّد وكانت وفاته سنة ١٢٧٣ ، كما فى ص ٣٣٠ من ديوان الشيخ شهاب . اهـ

احمد تيمور

(الرسالة) بهذه الترجمة انتهى ما كتبه العلامة الجليل المرحوم أحمد باشا تيمور من تراجم علماء القرن الرابع عشر وأدبائه ، وسيدرك القراء ولا ريب حزاز من الأسف على انقطاع هذه السلسلة الفريدة فى روحها اللطيف ، وأسلوبها العذب ، ومعرضها المشرق ، وصدقها الأخاذ ، وطابعها الجميل . فهل لشيخ من شيوخ الأدب اجتمعت له مزايا الفقيد من فهم العصر ، وملابسة الأشخاص ، وتذوق التاريخ ، وتوخى الايجاز ، وصراحة اللهجة ، يصل ما انقطع من هذه السلسلة ؟ ومَنْ أحق بهذه الخدمة الجليلة للأدب والعلم والوطن من الأستاذ عبد الوهاب النجار ؟

فى تاريخ الأدب

رأى جديد فى المعلقات

نقد وتعقيب

بقلم محمد طه الحاجرى

كتب الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المتعال الصعيدى فصلاً فى « الرسالة » جعل عنوانه : (المعلقات . رأى جديد فيها) ، وقد والله فتننى هذا العنوان أيما فتنة ، واستوقفنى عن قراءة المقال برهة ، وأسلمنى الى طائفة من الخواطر غير قليلة . فقد طال عهدنا بالطريف من الآراء فى تاريخ الأدب ، واشتدت حاجتنا الى اعادة النظر وتقليب الفكر فى تراثنا الأدبى ، واستشفاف الحقيقة المستكنة فى ثنايا النصوص المختلفة ، والتأويلات الكثيرة ، ولاسيما فيما يتعلق بالعصر الجاهلى ، وقد وقفنا منه فى مجهل لايتبين الباحث فيه إلا نتفات خاطفة ، وأثارات ضئيلة ، يكتنفها الغموض ويحيط بها الابهام وتلعب بها الأوهام . . . وما نشك فى أن المعلقات صورة صحيحة من ذلك العصر ، مهما كان أمرها ، ومهما اختلفت فيها مذاهب الباحثين وآراؤهم . فكل رأى جديد فيها جدير أن تلتفت اليه القلوب ، وتصغى اليه العقول ، ويتلقاه المتأدبون بالبشر والترحيب ، إذ الجديد وحده هو الذى ينتظر منه أن يبدد الظلمات ويزيل الشبهات ، ويفسر المشكلات . وليس الأستاذ الصعيدى ممن يتهم بأن له مع المستشرقين علاقة هوى ، فيميل ميلهم ، ويفسد الأدب والتاريخ بآرائهم ! فجديده لابد أن يكون الجديد الخالص لا يشوبه شوب من تقليد . وهو رجل محافظ بطبعه ، فيما يظن الناس ، فجديده خالص لوجه العلم والحقيقة ، لا عن رغبة فى الخلاف وهيام بالتجديد .

حدثتنى بهذا الحديث نفسى ، وأنا واقف عند حد العنوان ، ولكنى كنت أنتقل فى مدارج الغبطة والفخر والسرور ، حتى أقبلت على المقال ألتهمه التهاماً ، فاذا بى لا أحس شيئاً مما خيله

لى المقام ، وزينته لى الأوهام ، ثم اتهمت مشاعرى فعدت الى المقال أقرؤه جملة جملة وكلة كلمة . فاذا بى أرتكس على عقبى ، وأحس فى نفسى مايحسه الطاعم لقاء طعام سئمته نفسه ، ومجه حسه ، وبرمت به معدته من كثرة ما تقلب فيها .

أما هذا الرأى « الجديد » فليس رأيا فى المعلقات من حيث هى صورة للجاهلية ، نلمح فيها صفاتها ، ونقرأ فيها خلائقها وعاداتها ، وليس بحثاً فيها من حيث وثاقة رواتها ، أو الوضع فى أبياتها ، ولكنه رأى فى سبب تسميتها ، ثم مايحتاج من توجيه وتعضيد ، وانحاء على الآراء الأخرى بالمحاجة والمجادلة ثم التوهين ، وهذا بحث جليل لايضع من قيمته جزئية موضوعه ، مادام متمشياً مع الأسلوب العلمى ، قائماً على أصول البحث الصارمة .

يقول الأستاذ فى سبب التسمية : « فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها وتتبعهم اياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر » .

فهو يذكر هنا سببين متداخلين : الحب والتتبع ، ثم التتبع بالحفظ والشرح ، وما أدرى فيم هذه المعاظلة ؟ . أما كان الأدنى الى الاستقامة أن يقتصر على السبب الأول ، ويكون مابعده مرتباً عليه ، راجعاً اليه ناتجاً منه ، فيكون سبيل التسمية هو هذه الدرجة الرفيعة التى قدرها الناس لهذه القصائد ، فتعلقوا بها ، وأولوها حبهم وإعجابهم ، وما يمليه عليهم الحب والاعجاب من القيام عليها بالأستظهار والشرح ، أما التعليق بمعنى كتابة الشرح على المتن فما نحسبه مما كان يسوغ فى عرف اللغة حينذاك .

هذا هو الجديد فيما يزعم الاستاذ ، ولوددت والله لو كان جديداً حقاً ، فنرفع به رءوسنا تيهاً ونخراً ، ولكنه رأى مقرر ، يدرسه طلاب المعلقات فيما يدرسون من الآراء فيها منذ أصبح لدراسة المعلقات فى مصر سبيل علمى معبد ، وأسلوب جامعى ثابت ، فليس الجديد فى حقيقة الأمر إلا اعتبار هذا الرأى جديداً اليوم .

وإذا كان لابد من ثبت لما ندعيه من قدم هذا الرأى وإمعانه فى الشيوع بين جمهرة العلماء ، فها هو العلامة المستشرق الجليل نولدكه Noldeke ، وهمك به من علامة ذائع الصيت ، يقول فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية ، وهى أدنى مايقصد اليه الباحثون :

« إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع الى تسميتها بالقصائد المذهبات ، وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها ، وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه ، فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة ، وأن هناك اشتقاقاً آخر من المادة نفسها ، وهو كلمة «علق» ، ومعناها الشىء النفيس»[1]

فمدار القول هو الاعتبار المجازى فى فهم الكلمة وإغفال المعنى الحرفى لها . فأين هى الجدة التى يسندها الأستاذ الى رأيه ؟

وأما قوله إن المعلقات هى أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه فدعوى لا نحسب الا أن علم الأستاذ وفضله ينوءان بها ، وأيا كان الأمر ، فان تعيين الأولية فى هذا العصر الغامض البعيد أمر ليس من السهولة بحيث يلقى فى كلمة فى درج الكلام ، بل لابد من النص الواضح أو الاستنتاج القاطع

وبعد أن انتهى الأستاذ من عرض هذا الرأى وتوجيهه عمد الى ما يخالفه من الآراء عرضاً ومناقشة ، وقد اكتفى من هذا برأيين : الأول رأى ابن عبد ربه وابن خلدون وابن رشيق ، والثانى رأى أبى جعفر النحاس المصرى ، وكان المنتظر أن يعرض الى غير هذين الرأيين من آراء المحدثين ، فقد جعل مستهل مقاله أن العلماء قد اختلفوا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية هذه القصائد ، فالقارئ معذور اذا ظن أن الأستاذ يعرف مذهب المحدثين الى التفسير المجازى ، ثم أغضى عنه تمهيداً لوصف رأيه بالجدة والابتكار ، والا فأين ما خالف فيه المحدثون عن رأى المتقدمين ؟ ولكنا لا نقول بهذا ، فليس مذهبنا فى النقد أن ندخل الى الضمائر ونحاسب على النيات ، ولا نقول هنا إلا أن أول واجب يفرضه العلم على الباحث المؤرخ هو التقصى فى طلب النصوص ومعرفة الآراء ، والتثبت فى وصف الرأى ، والعصمة لله وحده

---

(١) ويرى الأستاذ كليمان هيار أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً «السموط» بمعنى العقود أو القلائد

« الرسالة »

أما أول الرأيين فيقول إن المعلقات كتبت بالذهب ، وعلقت على أستار الكعبة ، وكأن الأستاذ رأى هذا الرأى بين البطلان ظاهر الاستحالة ، فاكتفى بعرض أقوال القائلين به وأغفل مناقشته ونقضه

وأما الرأى الآخر فينكر دعوى تعليق المعلقات على أستار الكعبة ، ويذهب الى أن الملك كان اذا استحسن قصيدة مما كان ينشد فى سوق عكاظ قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى

فانظر ماذا يصنع النقد فى هذا الكلام ؟ يقول أبو جعفر « الملك » مطلقاً من غير تعيين ، فيأبى الأستاذ الا أن يفترض أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، ثم يبنى على هذا الافتراض الذى افترضه هو اعتراضه موجهاً الى أبى جعفر ، فيقول إن عصر النعمان أحدث من عصر كثير من أصحاب المعلقات فلا يصح أن يكون هو الذى كان يعلق قصائدهم بخزانته بعد إنشادهم لها بسوق عكاظ واستحسانه انشادها ، وهذا ولا ريب سبيل ملتو ، وتحكم فى النقد غير محمود ، وتحريف للكلم عن مواضعه ، وتخصيص للعام بدون مخصص

ويتوارد العلامة نولدكه والأستاذ الصعيدى فى نقد عبارة النحاس عند هذه النقطة ، أما الأستاذ الصعيدى فقد ذهب إلى ما رأينا من التحكم والبناء على الفرض ، وأما نولدكه فيقول إن من الصعب احتمال أن ملكاً عربياً كان يشهد سوق عكاظ . ويؤلمنا والله أن يكون هذا العلامة الأعجمى أكثر توفيقاً ، وأهدى إلى الجادة فى فهم الكلام وتخريج النصوص .

ثم ينتقل الأستاذ إلى وجه آخر من وجوه النقد ، فيقول إن سوق عكاظ التى أجمعوا على أن تلك القصائد كانت تلقى فيها أحدث بكثير من عهد أصحاب المعلقات ، لأنها أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ولوددنا والله لو دلنا الأستاذ على مصدر هذا القول ، فلسنا نذكر أن ياقوتاً تعرض فى معجمه إلى تاريخ إنشائها ، والذى نحسبه أن عهد هذه السوق أقدم مما ذكر الأستاذ ، ففى سيرة ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد حرب الفجار وعمره أربع عشرة سنة ، ويذكرون فى سببها أن قريشاً حين بلغها مقتل عروة الرحال ، كانت فى عكاظ ، وفيها قامت الحرب ، وسميت باسمها ، وقال ابن الزبعرى فى مدح العنابس :

وفى يوم عكاظ منعوا الناس من الظلم

بل إنهم ليذكرون فجاراً آخر قامت وعمر الرسول صلوات الله عليه عشرة أعوام ، ويذكرون فى سببها أن أحد الغفاريين كان له مجلس فى سوق عكاظ يفتخر فيه ، ويزعم أنه أعز العرب فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته .

وأوضح من هذا فى الدلالة على قيام هذه السوق قبل التاريخ الذى حدده له الأستاذ ما جاء فى أخبار عبد شمس بن عبد مناف أن زوجته عبلة بنت عبيد كانت قبله تحت رجل من بنى جشم ابن بكر فبعثها بانحاء سمن تبيعها له بعكاظ ، فباعت السمن وراحلتين كان عليهما وشربت بثمنها الخمر . . الخ القصة ، وهى مذكورة فى الجزء الأول من الأغانى فى أخبار عمر بن أبى ربيعة ، وهى تدلنا دلالة قاطعة على قيام سوق عكاظ فى عهد عبد شمس ، وأين عبد شمس مما ذكره الأستاذ ؟ فكيف يصح مع هذا أن يكون عام ٥٨٦ تاريخاً لبدء قيامها ؟

والأمر بعد هذه النصوص كلها بعيد الاحتمال بالنسبة للأمة العربية ، وهى أمة تجارية منذ أقدم عصورها ، وقد جعلت من أسواقها نطاقا يحيط بالجزيرة ، ونظمت قيامها تنظيماً يتفق مع سير التجارة ، وكانت عكاظ حلقة من هذه السلسلة . فكيف يسوغ القول بأن إنشاءها كان فى هذا العهد المتأخر ؟ ولكن لعل الأستاذ قد اعتمد على نص صريح قوى يضعف ما قدمنا من النصوص ، ويهدم ما رأينا من منطق الأمور .

وبعد ، فلا يحسبن القارىء أننا ندافع بهذا القول عن رأى أبى جعفر النحاس ، فلسنا ، ولله الحمد ، من القائلين بالتفسير الحرفى لكلمة المعلقات ، وما نبغى من كل ما أسلفنا إلا أن نقر الأمور فى نصابها ، فلا نغمض فى الاقرار بالحقوق لأصحابها ، وأن نصطنع الانصاف فى نقد ما نراه جديراً به ، فلا نتجنى على الشىء مالا يحتمل ، ولا نستعصم إلا بالقاطع من الأدلة والصحيح من الحجج . ونرجو أن نكون قد وقفنا على الجادة فى هذا النقد فلم يستزلنا الهوى ولم يخطئنا التوفيق .

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب